الليلة السابعة

بقلم : عباس محمد عباس

فى تلك الليلة . كان عم رضوان يتنفس — ككل شيء حوله — فى صمت واسترخاء لعله يتصيد لحظات من النوم قبل أن يدهمه النهار .... وفجأة صكت السكون خبطة عمياء اذابها الصمت الكبير بسرعة وبغير اكتراث بيد ان عم رضوان انتفض على اثرها مذعورا واشعل الشمعة على عجل ليستكشف بنورها الخابى مصدر تلك الخبطة . وكان الامر كما توقع فقد اصطادت اخيرا تلك المصيدة اللعينة ذلك الفار اللعين .... واقترب عم رضوان بوجهه من المصيدة يرمق بعينه الواحدة الفار الصغير وهو يتخبط داخل سجنه بحركات مشدوهة تبحث عبثا عن الخلاص ... وفى حماس تناول عم رضوان صفيحة فارغة نهش الصدا قلبها من ندرة الاستعمال ووضع عكازه تحت ابطه ثم انطلق خارج « الكشك » فى خطوات سريعة فبدا — لقصر طبيعى فى ساقه اليسرى — وكأنه يقوم برقصة همجية الحركات... ومن البحيرة الصناعية الصغيرة التى تتوسط الحديقة الكبيرة ملأ الصفيحة الى ما يقرب من منتصفها بالماء وعاد يتلهفا خافق القلب كأنه عاشق فى الطريق الى موعد غرامى تترصده المخاطر ...... وفى حذر فتح عم رضوان باب المصيدة فاندلق الفار فى ماء الصفيحة « يطبش » فى يأس وهلع وعيناه المستديرتان تلمعان فى رأسه الرمادية الصغيرة وهى تظهر وتختفى فى الماء ومخالبه تخربش جدران الصفيحة كأنما تريد أن تحفر فيها منفذا للخلاص .... ووقف عم رضوان ظافر النظرة مهيج الخواطر يراقب الفار فى نضاله المرير .... وحينما بدات حركات الفار تفقد حدتها وهلعها وقبل ان يستسلم تماما لمصيره انتشله عم رضوان من الماء واعاده الى المصيدة فى حركة خاطفة غير واعية .... وفى الليلة التالية سخر عم رضوان من انقاذه الفار بعد تلك الليالى الممضة التى قضاها مع مصيدته يتآمران ويفشلان ، ومن ثم ملأ الصفيحة ووضع الفار فى مائها وقد صمم على تركه يغرق ولكن حينما اوشك الفار على الغرق تماما عاد عم رضوان وانقذه من جديد ثم اعاده داخل المصيدة مع قطعة خبز ... وتكررت العملية بكل طقوسها فى الليلة الثالثة .. والرابعة ... والخامسة...

وفى صباح الليلة السادسة جلس عم رضوان خارج الكشك مستندا الى جدار اثرى قديم يطوى تحته الكشك فبدا الثلاثة — الجدار والكشك وعم رضوان — كأشياء لا مبرر لوجودها فى الحديقة .... وفى بطء مقصود لف

عم رضوان لنفسه سيجارة اخذ يجذب انفاسها فى تلاحق شره حتى توهجت بين اصابعه كجمرة النار ... وكالعادة وجد أمامه « لمعى » الجناينى بقامته الربعة ووجهه المتلىء وشاربه الكث وقميصه الكاكى المفتوح دوما على صدره برغم البرد .. وقال لمعى وعيناه تبتسمان مع شفتيه :

ــ صباح الخير يا عم رضوان .

وعلى غير العادة رد عم رضوان التحية ولكن لمعى الذى كان يحترف معاكسته استطرد بلهجة تدعى الاشفاق :

ــ امبارح ريس الجناينية قدم فيك شكوى علشان ماتنامش هنا لان الكشك ده مخزن موش لوكاندة !

وكظم عم رضوان غيظه المعتاد يحاول ان يشترى بصمته صمت لمعى ، ولكن لمعى استمر فى ثرثرته الضاحكة يضيف الى اكذوبته المزيد من التفاصيل حتى انهارت قدرة عم رضوان على الاحتمال فانفجر يشتم ويلعن لمعى بألفاظ غريبة وصوت جهير فقدت نبرته كل اتزانها. بينما وقف لمعى الى القرب منه ويداه فى خاصرته وبين شفتيه ابتسامة ساخرة بدت وكانها لن تغادر مكانها الى الابد ... واراد عم رضوان أن يحسم الموقف فمد يده الى جواره يريد أن يقذف لمعى بعكازه ولكنه اكتشف ان العكاز ليس فى مكانه .... وهنا جرى لمعى ضاحكا وانضم الى باقى الجناينية يحكى لهم المقلب بنفس مرتاحة وهم يتفرقون فى انحاء الحديقة لمباشرة اعمالهم بينما ظل عم رضوان يبحث عن عكازه حتى وجده معلقا على فرع شجرة يتأرجح كجثة مشنوقة فأخذه فى غضب مقهور وشتائمه تتعالى بلا حساب لاعنة الايام السوداء التى جعلته يعمل حارسا فى هذه الحديقة ، وأمه التى انجبته لكل هذا الشقاء . بل ان النائب الذى ساعده فى الحصول على هذا العمل نال هو الآخر مالا يستحق من الشتائم واللعنات .... وعند الظهر استطاعت اشعة الشمس أن تفتح لنفسها فى سقف السحاب ثغرة غمرت منها الحديقة بدفء ناعم أغرى عم رضوان بالاستلقاء على النجيل الرطب ، وسرعان ما اسلمه الارهاق الى النوم أكثر من ساعتين استيقظ بعدها على صوت طرى ينادى :

ــ مجدى .. خليك بعيد عن السلك

وفتح عم رضوان عينيه ليبصر صاحبة ذلك الصوت الطرى وكانت زينب تلك المربية السمراء ذات الجسد الانثوى الفائر المحشور دوما فى فساتين ضيقة وقد جلست قبالته على مقعد خشبى اخضر بلون النجيل الذى يغطى الارض خلفها حيث كان مجدى يلعب بكرته الملونة ... وكالعادة استقرت نظرات عم رضوان على ساقى زينب ، وكالعادة ايضا ابتسمت زينب وهى تلقى على عم رضوان نظرة سريعة مستمرئة وتجاهلته بعدها تاركة ساقيها نهبا لنظراته الزانية .... وبصق عم رضوان بلا سبب ولعن فى سره زينب وساقيها اللتين لا تستقران على حال ولا تخجلان من العيون حتى ولو كانت عيونه هو... وبغتة قام عم رضوان صارخا كوحش تلقى طعنة قاتلة :

ــ يا ولد ابعد عن حوض الورد .

وكان الولد بالفعل بعيدا عن حوض الورد ولكن هذا لم يعفه من ضربة

شديدة صفعه بها عم رضوان على ظهره فأخذ الولد الضربة وفر بها مفزوعا وشتائم عم رضوان تتعقبه فى ضجيج ليس له ما يبرره .... وجاء لمعى ، وكما يحدث دائما استطاع ان يجد الى جوار زينب ما يمكن أن يعمله فراح يشذب فى حماس مصطنع حافة النجيل بمقص كبير أخذت ضرباته الفارغة تطن بطقطقة عالية ..... وبسرعة اندمجا — زينب ولمعى — فى حديثهما المعتاد بالكلمة والنظرة والاشارة وربما اللمسة .... وأفاق عم رضوان على كراهية غير مسببة تملأ نفسه حتى حافتها نحو لمعى وزينب والنجيل الاخضر والسماء التى بدأ يعاودها الغيم من جديد ... وبلا مناسبة قال عم رضوان :

— انتى يا بنت.. خدى الولد وروحى الدنيا برد عليه النهاردة .

وابتسمت زينب فى غير غضب ولمعى يجيب عنها :

— والله ما حد بارد الا انت .

ووقف عم رضوان عدة لحظات ينقر لمعى بنظراته الغاضبة ثم بصق على الارض فى اتجاهه بصوت مسموع وحمل عكازه وكراهيته وسار بخطواته المترنحة حتى استقر عند طرف الحديقة المقابل وامامه امرأة صغيرة الجسد بيضاء البشرة . انيقة الثياب تتحرك بين يديها ابرتى التريكو فى نعومة وعيناها تحتضنان — بنظرات مليئة بالرضا — طفلها القابع الى جوارها فى عربته الصغيرة السوداء ... وتمنى عم رضوان ان تكون له زوجة مثلها نظيفة ورقيقة . تعيش معه فى منزل نظيف وجميل .... وهرش عم رضوان ظهر كفه ... ثم صدره ... ثم اخذ يهرش كل جزء فى جسده واحساسه بالقذارة يبتلع كل مشاعره الاخرى ... ومرة ثانية لف لنفسه سيجارة وقبل أن ينتهى منها سمع همسا يدور خلفه :

— ما بلاش الدموع دى امال

— يعنى أسيبهم يجوزونى على كيفهم ؟

— انا مقدرش اعيش من غيرك يوم واحد !

— ولا انا ... ولا انا ...

وتفتحت كل نفس عم رضوان لاستنشاق ذلك الحديث المعطر الباكى الذى يأتى اليه من خلف الحاجز الذى صنعته النباتات المتسلقة والذى يسميه الجناينية « ركن العشاق » لانعزاله عن باقى الحديقة مما يحميه من العيون.. وفى خفة اقترب عم رضوان من الحاجز ومن ثغرة يعرفها جيدا بين الفروع المتشابكة كانما تقوم بعراك ابدى أخذ يراقبما يجرى ... كانت الفتاة صغيرة وجميلة تلف رأسها فى منديل رقيق سمح لخصلة كبيرة من الشعر ان تستقر على جبينها وكان الفتى يجلس الى جوارها على المقعد كتفه فى كتفها وعيناه فى عينها وقد ارتدى « بلوفر » من الصوف الاسود تناثرت عليه نجوم بيضاء ... كان شبابهما حلوا ... حلوا الى اقصى درجة حتى بدا منظرهما فى عتمة الغروب المهاجمة كلوحة طازجة الالوان .. وقالت الفتاة بنبرة مخضبة بالدمع :

— انا حموت نفسي اذا ....

وقاطعها الفتى بأن وضع انامله

المرتعشة على فمها ... وتلقفت الفتاة كفه وراحت تغمر أطراف أصابعه بقبلات رقيقة متلاحقة ... وفجـــاة صرخ عم رضوان :

ـــ يا مجرمين

ثم استدار فى اعقاب صرخته حـــول الحاجزوامسك بالفتى وهو يتابع‌صراخه:

ـــ انا حوديكم فى داهية ياملاعين.. انتم فاكرين نفسكم فين .. انتم ... انتم .. وتجمع الكثيرون ... وانطلقت من بينهم كلمات الاستفسار والاستهجان والاستعطاف تملأ الجو والفتى يقـــاوم الموقف بفلول شجاعته والفتاة تهدىء فتاها ودموع مرتاعة تملأ عينيها ، وعـــم رضوان‌يصرخ بصوت عال أفرغه الغضب من كل محاســـــنه .... وجاء لمعى وخلفه زينب ... وفى هدوء وقـــوة استطاع لمعى أن يفك قبضة عم رضوان عن صـــدر الفتى ... وانصرف الفتى وخلفه الفتاة تدفعه كلما توقف وما اكثر ما توقف ناظرا خلفه يطعن عم رضوان بنظرات جارحة ومجروحة ... وتفرق الجميع ... وفى خطوات متعبة جر عم رضوان نفسه الى داخل الكشك واغلقه عليه وجلس صامتا متكوما .... حتى جاء عليه الليل .. وكان الجو باردا وفروع الاشـــجار فى الخارج تئن من ضربات الهواءبخشخشة جريحة ضاعفت من احساس عم رضوان بالوحشـــــة والكآبة فاندفع يلعب مع الفأر لعبتـــه القاسية .. وكلما انتهت اللعبة يعاودها من جديد بضراوة اكثر وهو يراقب الفأر بنظرات فيها لون الدم ولون الصـــديد والليل يمضي بينما الامطار فى الخـــارج تهمى بشدة والحاح ... وفى المـــرة الخامسة ـــ وربما السادسة ـــ التى كان يقوم فيها عم رضوان بلعبته القاســـية مع الفأر سمع طرقا على الباب .وكذب اذنيه بادىء الامر ولكن الطرق كـــان حقيقيا فأخفى الفأر ثم فتح الباب . وقبل ان يجمع نثار نفسه كانت « وردة » قد خطت داخل الكشك وهى تقول :

ـــ اصلى مالقيتش حته استخبى فيها من المطر الا هنا .... والا فيه مانع ؟

وكان لديه الف مانع الا ان المفاجـــأة افقدته القدرة على الكلام فاغلق الباب فى صمت حائر ثم جلس فى احد الاركان ينظر اليها فيما يشبه البلاهة وهى تجلس على‌الارض بعدان خلعت ملاءتها السوداء المبللة بماء المطر ... فمن كان يصـــدق أن وردة التى تبيع جسدها فى أحراش الحديقة‌الواسعة بقادرة ان تقترب مجرد الاقتراب من عم رضوان بعد تلك المعارك القاسية التى خاضتها ضده حينما أراد ان يطردهـــــا دفاعـــــا عن « شرف » حديقته .... وتململ عم رضـــوان فى ضيق وهو يتذكر شتائم وردة الفاجرة وطريقتها فى المراك التى اجبرته على ان يوقع معها معاهدة غـــير مكتوبة بأن يتجاهل ويتحاشي كل منهما وجـــود الآخر ... ودقق عم رضوان النظر فى وردة كان يراها لاول مرة بوضوح تحت حفنة الضوء تلقيها عليها الشمعة فبدت له حقيقة عمرها الذى ضم قبضته على مايقرب من الخمسين عاما لم تســـتطع اخفاء وجودها صبغة الشعر الفاضحة، ولا السنة الذهبية التى تبرق فى مقدمة فمها .. ووسط الصمت الذى امتد بينهما باردا كالثلج موحشا كجوف منجم مهجور انفجرت وردة باكية فى صوت أقرب ما يمكن الى مواء القطط . وشـــعر عم رضوان بالدهشة والضيق وهم بطردها

ولكنه قال لها بصوت لم يكن هو سيده :

— مالكِ ؟ !

واجابته وردة بمزيد من البكاء فتقدم منها غاضبا وبعنف لم يقصده امسك بذراعها . فسكتت عن البكاء ورفعت نحوه عينيها مبللتين بالدموع وبينهما نظرة منكسرة كانما تريد ان تشحذ بها شيئا .... وارتبك عم رضوان وقال واصابعه تلين على ذراعها :

— مالكِ يا بنت الناس ؟

فقالت وردة فى صوت خفيض.... خفيض جدا :

— تعبت خلاص .... اول امبارح روحت زى ما جيت ... وامبارحبوليس الآداب كان مالى الجنينة ....والنهاردة اديك شايف المطر مش عايز يبطل . الدنيا وحشه ... وحشه خالص ...

ولم يجد عم رضوان ما يقوله فجلس الى جوارها صامتا ... ولما طالت به الجلسة ولم يجد شيئا يفعله حاول ان يقوم فأمسكت به وردة — ربما من غير قصد — فعاد الى مكانه بلا كلام ولحم كتفها يضغط على لحم كتفه وبين عينهما نفس النظرة المنكسرة التى تبدو وكأنها تريد أن تشحذ شيئا ......

وفى الصباح الباكر وبعد ان رحلت وردة بوقت قصير . وقف عم رضوان امامالكشك يراقب بنظرات هادئة السماء التى ما زالت تكتظ بكتل السحاب السمراء ، وطرقات الحديقة الموحلة ، والاشجار المبللة الجذوع ، والازهار المنقطة ببقايا المطر .... وشعر عم رضوان بكل ما حوله مغسولا طازجا فامتلأت نفسه بحيوية طارئة دفعته الى السير فى الحديقة فترة طويلة من الوقت يصفر بفمه « ويشوط »الحصي بعكازه .... وحينما عاد الى الكشك اجتاحته رغبة غير مفهومة فى ان يطلق سراح الفار السجين .... وبلا تفكير كثير اخرج عم رضوان المصيدة من مخبئها ووضعها على عتبة الباب ... وفى حذر فتح باب المصيدة وحبس انفاسه فى انتظار خروج الفار الى الحديقة الواسعة .... ولكن الفار لم يخرج لانه كان قد مات .